صور التعددية في الخطاب الروائي

من التناحر إلى التسامح

في روايتي: "أنا وحاييم" للحبيب السايح و"كتاب الأمير" لواسيني الأعرج

from Rivalry to Tolerance--Pluralism Pictures in Narrative Discourse In the novels: "Ana wa Haiim" by Habib Al-Sayeh and "Kitab Al-Amir" by Wasini Al-Araj

د.هند سعدوني*

المدرسة العليا للأساتذة الكاتبة آسيا جبار– قسنطينة

مخبر الدراسات التعليمية واللسانية والأدبية في الجزائر

sadouni.hind@ensc.dz

تاريخ الاستلام: ٢٠٢٤/٠٣/٠٥ **تاريخ القبول:**٢٠٢٤/٠٦/٠١ **النشر:**٢٠٢٤/٠٧/١٩

ملخص:

تقدّم هذه الدراسة مقطعا مشهديا لمعالجة الرواية للتاريخ الإنساني في صراعه الطويل الذي تتنازعه الرغبة المتسلطة المتناحرة من جهة والإرادة الإنسانية المتسامحة من جهة أخرى، تعرض من خلاله لعدد من الصور المسرّبة من ملف الهويات الشائك، الملغم بالتنافر العَقَدي والمفعم بالتسامح الديني. وعدد آخر من مفارقات ممارسات الفقد القسري أثناء الحرب وجرائم المستعمر والتمييز العنصري، وطموحات تحقيق الحياة الفاضلة والعادلة. وذلك عبر نموذجين روائيين متقاربين في الفكرة التاريخية والطرح الطوباوي، مختلفين في زاوية الرؤية وطريقة العرض؛ رواية "كتاب الأمير" لواسيني الأعرج كخطاب صريح/موارب مطالبٍ بضرورة تجاوز أزمة الهوية إلى تعايش الخصوصية، ورواية "أنا وحاييم" للحبيب السائح كخطاب بوليفوني/ديموقراطي غير اعتيادي وصادم.

الكلمات المفتاحية: تعددية، خطاب روائي، صراع، تسامح، بوليفونية، تعايش.

Abstract :
The focal aim of the current investigation is providingan overview of the novel's care to the human history in its long struggle between rivalries on the one hand, and tolerance on the other hand. Through it, human exhibited a number of images leaked from the spiky identity file amalgamated with doctrinal dissonance and full of religious tolerance.Adding to a number of other paradoxes related to the practices of forced loss during war, colonial crimes, racial discrimination, and aspirations to achieve a virtuous life. All the previous is inquired via two novels that are similar in concept and different in presentation. Wasseeny Al-Araj's novel "(Kitab Al-Amir)" calls for the necessity to overcome the crisis of identity and exit to the coexistence of privacy. Yet, Habib Al-Sayeh's novel "(Ana wa Haiim)" describes the forced loss during the war, the colonial crimes and racial discrimination consequences and without giving up the ambition to achieve a virtuous life in a shocking polyphonic democratic speech.

KeyWords: pluralism, narrative speech, struggle, tolerance, polyphonic, coexistence.

*المؤلف المرسل

المقدمة: أفكار وحقائق عن 'ما هو كائن'..

لا يمكن أن ننكر أن تاريخ عالمنا القديم مليء بالصراعات والحروب، لكن عالمنا الجديد أيضا يبدو أشد ضراوة، وقد فقد إنسانيته أو كاد في حروب كونية قضت على ملايين البشر. ورغم موجة العنف التي كانت آثارها محطِّمة، وَاصَلَ ابن هذا الزمان تدميره للآخر وهو لا يعلم أنه يُدمّر نفسه معه. وتوالت النزاعات في التاريخ الحديث والمعاصر بين عديد الأمم، بل وبين أبناء الأمة ذاتها. ممّا شكّل إلى جانب صوت الحرب الصاخب خطابا عنيفا رافضا لبعضه بعضا؛ هو خطاب الكراهية. الذي عرفت الحياة الواقعية وطأته وتناولته النصوص الروائية كمادة للمأساة التي تؤجج حدّة العقدة في قصتها، وهي تعالج مجموع الخصومات التاريخية والسياسية والدينية والعرقية. "إن الرواية لا تُعفي مطلقا من ضرورة الحصول على معرفة عميقة ودقيقة باللغة الأدبية، بل إنها تستلزم فضلا عن ذلك، معرفة لغات التعدد اللساني. إن الرواية توسيع وتعميق للأفق اللساني، إنها تنقي وتشحذ إدراكنا للفروقات الاجتماعية-اللسانية." (باختين، ٢٠٠٩، صفحة ٢٣٤) فاللغات المتعددة التي تحيط بنا في واقعنا تنتقل إلى الرواية لتحولها من جسد لساني إلى تركيبة اجتماعية في الآن ذاته.

وقد يكون ما نعانيه اليوم في عالمنا العربي من صراعات وتوترات مع الآخر هو نتاج لانقسامنا بين عقليتين ضديتين في التعامل: "بين نمطين من ممارسة الوجود والدفاع عن الكيان والهويات في مواجهة التحديات والأزمات. ١) نمط يتعامل أصحابه مع هويتهم كما هو شأن الأسوياء، على سبيل التبادل مع الآخرين ومعاملتهم بالمثل، بوصفهم شركاء أو نظراء في المواطنة والإنسانية، بصرف النظر عن الاختلاف في المعتقد والمذهب أو في اللغة والعرق أو في اللون والصقع. ٢) نمط آخر يتعامل أصحابه مع هويتهم الدينية أو القومية بأقصى الغلو والتطرف والانغلاق، كعُصاب نفسي هو مصدر للتوتر والتشنج، أو كجهاز ثقافي للشحن والتعبئة، أو كخطاب فكري للنبذ والإقصاء، أو كمتراس عقائدي لشن حرب على الغير." (حرب، ٢٠٠٥، صفحة ٨٨)

هذا الامتحان الإنساني الكبير الذي أخفقت فيه البشرية عدة مرات، أدخلها في حروب النبذ والإقصاء أو المحو والإبادة، رغم السعي الحثيث لتجاوز هذه المحنة الوجودية القلقة. وذلك باجتهاد علماء الإنسانية من قديمها حتى حديثها، في محاولة جادة لإقامة علاقة سوية مع الآخر؛ فقد جاء في الفقرة الثانية٢-المادة العشرون٢٠ من العهد الدولي الخاص بالحقوق المدنية والسياسية: "تُحظر بالقانون أية دعوة إلى الكراهية القومية أو العنصرية أو الدينية تُشكّل تحريضًا على التمييز أو العداوة أو العنف." (المتحدة، ١٩٩٦)

وقد يُشار في المقام الأول إلى أن أهم أسباب الحروب والنزاعات انتشار الفكر الأصولي، وهو "ليس حكرا على الديانة الإسلامية، وإنما هي ظاهرة دينية عامة نجدها في الإسلام كما نجدها في المسيحية واليهودية والبوذية. لأن النمط الديني هو في أساسه سلوك فكري يقوم على عبادة الأصول، والوقوف من الآباء الأولين والمؤسسين من أصحاب الدعوات والرسالات موقف التقديس أو التعليم والتبجيل. بل إن الأصولية بوصفها تتأسس على الاعتقاد بحقيقة مطلقة وممارسة التفكير بصورة أحادية مغلقة، لا يقتصر على الديانات، وإنما نجدها في المذاهب والفلسفات الحديثة والعلمانية، كالقومية والماركسية. ولذا فهي قد تتجلّى على شكل وحي منزل لا يعتريه الباطل كما في الحالة الإسلامية،

أو على شكل نظرية علمية يدّعي أصحابها القبض على قوانين التاريخ كما في الحالة الماركسية، أو على شكل منظومة إيديولوجية يدّعي أصحابها صفاء العنصر أو اصطفاء القوم كما في الحالة القومية." (حرب، ٢٠٠٥، صفحة ٩٨) حيث يجنح كل طرف إلى اتهام الآخر بالكفر أو الرجعية أو الخيانة، معياره في ذلك اختلافه معه، فقط لا غير. والحقيقة أن هذا الاختلاف –لا الخلاف- ظاهرة صحية لكل الدول وفي كل الأزمنة، بل سيكون من العبث أن نفكّر في مجتمع متطابق، أفراده نسخ عن بعضهم بعضا، لأنه أمر قاتل ولا شك لجميع المواهب المنتجة، ولجميع الابتكارات المتميزة. فكيف لعقل أن يُدين الاختلاف وهو جوهر الكون وسرّ كينونته مذ وُجد، من قبل حتى أن نوجد نحن؟! إنها ثقافات متنوعة تصنع زخم العالم الذي يستطيع أن يحافظ على جدّته دائمة نضرة، من خلال تلاقح ال–هنا وال–هناك.

بحثا في هذا الموضوع يسلّط مقالنا الضوء على نماذج سردية مختلفة؛ بعضها يفتح ملف الهويات الصعب، ويتعامل مع التاريخ كمساحة للتساؤل دائما، "...كذلك، فإن الرواية تلجأ إلى تلك الأجناس، تدقيقا، على اعتبار أنها أشكال مشيدة من الواقع." (باختين، ٢٠٠٩، صفحة ١٦٢) حيث لا يمكنه أن يُغفل المحاولات العديدة للتسامح الديني بين المسلم والمسيحي واليهودي. وبعضها يتحدّث عن ممارسات الفقد القسري من خلال أجواء الحرب وجرائم المستعمر والتمييز العنصري، مع التمسك بفكرة الطموح لتحقيق الحياة الفاضلة والعادلة. ودون أن ننسى الإشارة إلى أن هناك نصوص روائية أخرى تطرّقت للإرهاب الذي ساد عددا من الدول، عندما حكم منطق الإقصاء من ناحية وبرز صوت التطرّف من ناحية أخرى، وقد قال 'سبينوزا' في 'رسالة في اللاهوت والسياسة': "إن الانقسام إلى شيع لا ينشأ عن رغبة صادقة في معرفة الحقيقة (لأن هذه الرغبة تؤدي إلى الطيبة والتسامح). بل عن شهوة عارمة للحكم." (بن عبد العالي، سبيلا، ٢٠٠٨، صفحة ٢٣) والحق أن النصوص المعالجة لمثل هذه القضايا والحساسيات الهوياتية المتوجسة كثيرة ومتعددة لا يتسع المقام لذكرها جميعا، بل يكفي أن نشير هنا إلى نماذج منها، خصوصا تلك التي نوّهت بضرورة فتح قنوات الحوار رغم الصدام العنيف بين الأطراف الرافضة اللافظة لغيرها.

إذ لم تنقل نصوص الروايات أحداثا كاذبة أو مبالغا فيها، فقد عجّ التاريخ بشواهد كثيرة من خطاب العداء والكراهية؛ "من وجهة نظر سوسيولوجية صرفة تكاد مقولة 'الآخر' أن تكون مقولة مؤسسة للرواية العربية (...) فالرواية كنوع أدبي، تكاد تكون بالتعريف [فن الآخر]." (طرابيشي، ٢٠١١، صفحة ١٥٧) وإن كانت نماذجنا الروائية ستنحصر في السرد الجزائري كعينة للدراسة في هذا البحث. وإننا لنراها شواهد قوية جدا تثير أسئلة مهمة حول مسألة التعدد الثقافي وقضايا حوار الحضارات وما صاحبها من الصدام الهوياتي. نستحضر من نماذجها القائمة هذا المشهد التأريخي القاسي : "أَ لَمْ يجمع الجنرال اللنبي الوجهاء المحليين عندما دخل القدس عام ١٩١٨ من باب حيفا ليقول لهم إنه جاء يحيي من جديد مجد ريشار قلب الأسد؟ أَ لَمْ تكن أول زيارة يقوم بها الجنرال غورو، بعد استيلاء القوات الفرنسية على دمشق عام ١٩٢٠، هي لقبر صلاح الدين ليقول للملأ من حوله: 'ها قد عدنا إلى الشرق، أيها السيد السلطان!'؟" (طرابيشي، ٢٠١١، صفحة ١٠٥) وكذلك ما نجده في الأثر الإسلامي من ذكر لشبهة الانتقامية التي قد تكون رافقت ولاية معاوية بن أبي سفيان في خلافة المسلمين، لما وقف أبو سفيان على قبر

حمزة وقال: 'رحمك الله يا أبا عميرة، حاربتنا على شيء آل إلينا.' وكم هي كثيرة الروايات التي نقلت ما يشبه هذه الصور الانتقامية والعدائية البشعة، من مثل ما ورد ذكره في رواية '٢٠٨٤ حكاية العربي الأخير' لواسيني الأعرج' على لسان بطلها آدم، عندما اتكأ على الحائط القديم، حائط صلاح الدين، يتهجى ما بقي من أثر قديم و يقرأ ما استقر في العهد الجديد: "على الجدار الأيمن للمدخل كانت توجد كتابة تعلن انتصار الجيوش العربية على الأرمن والتتار والصليبيين، لكنها محيت نهائيا وكتبت في مكانها جملة شديدة القسوة: في عقر دارك يا صلاح الدين." (الأعرج، ٢٠١٥، صفحة ١٢٩) عبارة ناقمة كهذه لا يمكنها إلاّ أن تقول أن حرب الهويات أشدّ الحروب ضراوة، فأمة تغزو أخرى، وتاريخ يمحو آخر. فيما يبدو أن الإنسانية منذ قديم عهدها لم تعرف تاريخا متسامحا/متصالحا ممتدا قط ..

تروي الحروب عددا كبيرا من القصص عن الانتصارات، عن الضحايا، عن الخسائر، عن الخيبات. عن الصداقات أو العداوات، عن علاقات الحب أو علاقات الكره، عن أشياء كثيرة لا حصر لها. ففي الحرب تبدأ حياة من جديد أو موت بلا رجعة. كذلك وبالمقابل، يروي النصان الروائيان متنا الدراسة أحداثا جرت زمن الحرب؛ فالرواية الأولى "كتاب الأمير –مسالك أبواب الحديد–" لواسيني الأعرج تتحدّث عن الأيام الأولى لزمن الاحتلال الفرنسي للجزائر، وعن أولى المقاومات الشعبية الجزائرية القوية التي قادها الأمير عبد القادر الجزائري. في حين تدور أحداث الرواية الثانية "أنا وحاييم" للحبيب السائح في الأيام الأخيرة لحرب التحرير الجزائرية، وما تلاها من مستجدات بُعيد الاستقلال مباشرة.

"أنا وحاييم" بوليفونية ديموقراطية صادمة..

"أنا وحاييم" نصّ جريء للروائي الجزائري المتميّز "الحبيب السائح" يتناول علاقة الصداقة الحميمة بين جزائريَين من معتقدَين متناحرين–في الغالب أو في الظاهر–؛ فأحدهما مسلم والآخر يهودي، وتدور الأحداث بين زمنين أيضا زمن الاحتلال وزمن الاستقلال. وهي الفترة الانتقالية العصيبة جدا في تاريخ الجزائر الحديثة. لكن، وقبل الغوص في أعماق الرواية، والبحث في إشكالية التعايش بين الأضداد الظاهرية من عدمه، خاصة إذا ما علمنا بأن هذه الأضداد هي السارية المفعول في المجتمعات السطحية كمجتمعاتنا العربية المنهارة منذ زمن؛ عقب خروجها من سياق الحضارة الواثقة ووقوعها في فخّ الأوهام والشكوك. قبل كل هذا، نودّ الإشادة في البداية بجرأة الغلاف، الذي قدّم الكتاب ومعه صاحبه بلا مواربة وكما هو؛ مباشرا، صريحا، صادما، وغير اعتيادي بالمرة،... كأنه يبحث عن الرفض أو يغوص في خلخلة السائد بدءا من الواجهة، حدث كل ذلك وأكثر على غلاف الكتاب، باستعمال خط يشبه الخط العبري، بحركاته المميّزة له عن أي نوع آخر من الخطوط، فإذا به يستفزّ المتلقي حدّ اقتناصه من بعيد بهذه الصراحة المفاجئة. زد عليه ذلك العنوان المباشر، والذي لا يخشى الإفصاح عن الهوية التي يكاد يُواريها العام والخاص في بيئاتنا العربية الباحثة عن نفسها وسط النزاعات. وكان العنوان "أنا وحاييم" يكشف مباشرة عن شخصية يهودية ستلعب دور البطولة جنبا إلى جنب مع أنا الذي يشبهنا نحن؛ عرقا وجنسا ومعتقدا. كلاهما يعبران عن صوت الكاتب المتسامح إنسانيا والهجين لغويا "ونحن نصف بالبناء الهجين ملفوظا ينتمي، حسب مؤشراته النحوية (التركيبية) والتوليفية إلى

متكلم واحد، لكي يمتزج فيه، عمليا، ملفوظان، وطريقتان في الكلام، وأسلوبان، و'لغتان' ومنظوران دلاليان واجتماعيان." (باختين، ٢٠٠٩، صفحة ١٣٣)

دارت أحداث الرواية إذن بين 'أرسلان ولد حنيفي' ابن 'القايد' و'حاييم ولد بنميمون' ابن 'اليهودي'، ابنَي مدينة 'سعيدة' (البعيدة) في العمق الجزائري الموغل في البساطة والصدق، وقد جمعتهما الأقدار صديقَين ورفيقَي دراسة وحياة، بمحبة غامرة لا تشوبها نعرات أو خلافات. وبين هذا وذاك سلسلة أحداث أخرى تروي أزمنة الاحتلال في ما قبل الثورة وأثناءها ثم زمن الاستقلال بكل أحلامه وأزماته، وقد انكشفت ميولات الاستغلال شيئا فشيئا. ترسم رواية الحبيب السائح صورا متعددة لنماذج مختلفة من الشخصيات؛ كالثوري والاستغلالي والمحتلّ والمظلوم والمذهبي والطائفي... ووسط هذه الصور الكثيرة برع المؤلف في نسج قصص متداخلة، نقلت جانبا كبيرا من الحقيقة، حين تحدّثت عن خطابات الكراهية التي يبّثها البعض ومحاولات التعايش التي ينادي بها البعض الآخر.

ترسم الرواية –كما أسلفنا– صورا متعددة لنماذج ثنائية من الشخصيات؛ نذكر منها صورتي الثوري الحرّ والمنفعي المستغِل، وصورتي المحتلّ الفرنسي الغاشم والمحتلّ الفرنسي المثقف، وصورتي الجزائري المظلوم المدافع عن أرضه والجزائري الخائن البائع لقضيته، إضافة إلى صور كل من المسلم والمسيحي واليهودي في اختلافهم وتآلفهم وقد جمعتهم الأقدار على أرض واحدة.

وعبر هذه الصور حاولت الرواية من خلال معالجتها الفنية التخييلية أن تقوم بعملية رصد شبه شاملة لأنواع الخطاب التي كانت سائدة في جزائر الثورة وما بعدها؛ تلك الخطابات السياسية الإيديولوجية، أو تلك الخطابات الدينية الدوغمائية، أو حتى تلك الخطابات النفسية العصابية في أحايين كثيرة... وبها فتحت سجلات الحرب والسلم، الكره والحب، الرفض والتعايش. وفي الانتقال من ثنائية ضدية إلى أخرى، حقّق هذا الخطاب الروائي "أنا وحاييم" بوليفونية ديموقراطية، وهي تُسمع المتلقي الأصوات المتعدّدة على اختلافها. مما رفع سقف الصراع عاليا، بكل ما ينقله من ملامح حقيقية عن الواقع المعيش في تلك الفترة من جهة، وبكل ما يحمله من عناصر تشويقية للرواية من جهة أخرى.

ورغم ظلم وظلمة الاحتلال إلاّ أن الرواية أعطت جانبا واسعا للتصوير الحر لنماذجها الشخصية، وبرهنت قدر المستطاع على صدق المقولة الإنسانية التي تنصّ على أن الخير المطلق أو الشرّ المطلق خرافة. فالبشر تركيبة مزجية بين هذا وذاك، ووحدها الظروف تُغلّب إحدى الجوانب على غيرها. ولا ننسى أن "للبناءات الهجينة أهمية جوهرية بالنسبة لأسلوب الرواية." (باختين، ٢٠٠٩، صفحة ١٣٤) وهي الصورة المشهدية التي رسمها مستوى الصراع بين الجزائريين والفرنسيين، لكن ليس كل الفرنسيين؛ حيث لم يتمركز الراوي في خندق رؤية واحدة، بل راح يقلّب نظرته إلى العالم من حوله في كل الاتجاهات، بدافع البحث عن جانب منير من الحقيقة، وجاءت صورة الفرنسي منشطرة إلى نوعين؛ أولهما المحتلّ الغاشم، والنوع الآخر هو المحتلّ أيضا لكنه بصبغة المثقف هذه المرة، الذي لا يخلو من شيء من العدالة والحق.

فتماما كما نقلت لنا الرواية معاناة أرسلان هو وكل الجزائريين من احتقار محتل سلبه الأرض والحقوق، ووسمه في المقابل بصفات النقص والعار، وقد صار ينعتهم بالأنديجان. مثلما أفردت مساحة خاصة للحديث عن فرنسيين آخرين مثقفين وتنويريين ومنتصرين للحقّ. وإن كان بعض الامتياز الذي حصل عليه أرسلان كان بصفته ابن 'قايد'، ممّا مكّنه من مواصلة تعليمه والذهاب إلى الثانوية. لكن هناك أيضا مَنْ رأى رؤية العين، كيف منحت فرنسا لنفسها حقّ الاستحواذ على كل شيء وتعليم أبنائها على أرض ليست بالأصل لهم، مقابل حرمان ملايين الأطفال الجزائريين من الحق نفسه وهم الأَولَى أصالة وانتماء. بالرغم من كل ذلك، وفي قمة الإحساس بالظلم راح أرسلان يستحضر وجه المدير الذي انتصر له في إحدى معارك الكرامة التي خاضها داخل الحرم المدرسي المحكوم بالنار والحديد، فيقول: "حين أتذكر وجه ذلك المدير الجذاب أتذكّر وصية والدي عشية سفري إلى ثانوية معسكر: 'في الفرنسيس رجال أحرار وعادلون. لا تنس هذا!'." (السائح، ٢٠١٨، صفحة ٢٢)

لكن المحيط الذي لم يكن وديا كله، إن لم يكن معاديا في كثير من الأحيان، كان يُعمّق بدوره حجم المأساة اليومية بسبب الميز العنصري الذي يكرّسه القانون تحت وطأة الاحتلال، وكيف تُعطى الأحقية دوما لأبناء فرنسا وأبناء الكولون من الأقدام السوداء دون سواهم. أ لم تكن الثانوية الفرنسية للفرنسيين فقط ولا يدخلها إلاّ واحد من الأهالي في أحسن الأحوال، وهناك، عليه أن يقاوم كل معاني الاحتقار. ورغم ذلك "تكتشف أن لك استعدادات، تعدل أو تفوق تلك التي يُظهِرُها زملاؤك من غير الأهالي، وأنّ لك إرادة على إبدائها، بشعور بالغربة يدفعك إلى التعويض الإيجابي؛ غربة غالبا ما كان لها في نفسي طعم شهي من التحدي." (السائح، ٢٠١٨، صفحة ٢٤) لذلك لم يُثنِ هذا من عزيمة أبناء الجزائر في التقدم إلى الأمام نحو تحصيل العلم كلما فُتحت لهم السبل لذلك، بل وإثبات تفوّقهم على أولئك الآخرين من أصحاب الإمتيازات، الأمر الذي خلّف جرحا عميقا لدى زملائهم الفرنسيين من المدارس نفسها، لتلعب الغيرة دورها في شحن كل ألوان الكراهية على اختلاف أساليب خطابها؛ ها هو زميلهم أنطوان لونورموند بكل الحقد الذي سبّبته عقدة التفوّق على الجزائري، يقول: "'الأنديجان لا همّ لهم غير الدروس ينكبّون عليها، كما الجياع على الطعام. وبمجرد أن يشبعوا شبعتهم الأولى سينامون'." (السائح، ٢٠١٨، صفحة ٢٥) إنه صراع على كل الأصعدة، عقدية وعرقية ولغوية... "وكذلك ظل أمر هذه العربية، وهذا الاستعمار ولغته يصطرعان. ولكن العربية كانت تصرعه. وكان يغالبها، ولكنها كانت في معظم الأحوال تغلبه، فيزيد حقده عليها، ونقمه منها، وبغضه عليها، ويضاعف غيظه عليها أضعافا." (مرتاض، ١٩٨٣، صفحة ٣٨)

هذا عن المشهد الجزائري العام، أما داخل المشهد الروائي المخصوص فإنّ المعاناة الأكبر كانت مسيو ويل، الذي لم يتوان أبدا في محاولاته المتكررة لمعاقبة أرسلان وزميله حاييم بسبب صداقته له، ذلك العربي الأنديجان وهو اليهودي الحاصل على الجنسية الفرنسية. كان مسيو ويل –الويْل الحقيقي- مؤلبًا دائما لحاييم على أرسلان، ففي إحدى

تحريضاته يخاطبه قائلا: "'ولكن قل لي، ما طبيعة هذه العلاقة التي تربطك بمسلم غير فرنسي! أنت حاييم بنميمون مواطن فرنسي أعلى من أرسلان حنيفي درجة! فكيف تقبل مصاحبة أنديجان مثله والحديث إليه بتلك اللهجة كأنه أحد أفراد عائلتك!'. وانتظر من حاييم نفيا أو وعدا غير أنّه ردّ عليه، ببداهة: 'لا أشعر أني فرنسي. وأرسلان مثل أخي'." (السائح، ٢٠١٨، صفحة ٣٤، ٣٥) وبين الحديث المؤلب والحديث الداعم، تزداد قناعتنا البحثية بأن "نثر الفن الأدبي يفترض حساسية تجاه التخثير والنسبية التاريخيين والاجتماعيين للكلام الحي، (...)وهذا النثر الأدبي يستولى على الكلمة وهي ما تزال دافئة من تجربة نضالها ومن عدائها، مُصمّمة وممزّقة بين النبرات واللهجات المعادية، يستولي عليها ثم يُخضعها، بما هي عليه، لوحدةِ أسلوبه الدينامية." (باختين، ٢٠٠٩، صفحة ١٧٨) فكل كلمة وكل نعت للشخصية هو حركية معنوية جديدة، تستطيع أن تتوزع باتجاهات مختلفة في الآن ذاته، تماما كما حياة الناس في واقعهم المتصارع منذ الأزل. في أماكن مختلفة، وحتى داخل المكان الواحد.

وقبل أن تنتقل الرواية إلى مستوى آخر، راحت تُثبّت "مشروعا محوره: الاثنان الآخران ليسا إلا واحدا." (أوجيه، ٢٠٠٩، صفحة ٤٢) وتفتح معالجة ثانية لتحاسب الداخل هذه المرة، فلقد تحدثّت الرواية أيضا عن نوعين متناقضين من الجزائريين أنفسهم؛ أولئك الثوار الأحرار الذين ذاقوا طعم الظلم وعرفوا معنى الحق والعدل، خلافا لصنف المنفعيين من المستغلين والانتهازيين. فإن كانت الحرب قد شُنت فذلك بغية استرداد الكرامة، لا من أجل الانتقام. ونخالها صورة مشهدية أخرى أراد الكاتب التركيز عليها بقوة من خلال استرسال السرد في متابعة مسيرة أرسلان النضالية بعد إنهاء دراسته والتحاقه بصفوف جيش التحرير الوطني، وبعد أن انتزع الوطن حريّته من أيدي المغتصبين الفرنسيين، حافظ أرسلان في داخله وعبر ممارساته على روح المثقف التنويري، وأكّد أنه ما حمل السلاح إلاّ للحقّ، لكن وقد وضعت الحرب أوزارها فلا يليق به أن يشارك في عمل انتقامي، وإن كان ضد مَن سلّطوا عليه جميع ألوان الظلم والقهر ذات يوم. لم يعانِ أرسلان الثوري المثقف من الجرح الأنثروبولوجي العربي، وهو غالبا في الحالة العربية ما يكون مضاعفا؛ "أمم أخرى وثقافات أخرى ما زاد الأمر بالنسبة إليها عن أن تكتشف أن الغرب قد تقدم فيما ظلت هي تراوح مكانها. أما في الحالة العربية، فقد اقترن السؤال: لماذا تقدم الغرب؟ بآخر لا يقبل عنه انفصالا: لماذا تأخّرنا نحن العرب المسلمين؟

في الحالات الأخرى –أو في أكثرها على كل حال– بقي السؤال دراميا.

في الحالة العربية نزع من البداية إلى أن يكون تراجيديا.

فاكتشاف تقدّم الآخر قد يكون في ذاته مفجعًا للذات، ولكن اكتشاف تأخّر الذات هو لهذه الذات بمنزلة مأساة." (طرابيشي، ٢٠١١، صفحة ٩٤) وربما هذا ما يفسر الممانعة العربية، وإن كان لا يبررها تماما، مادام ضائعا بين ثقافة كراهية الآخر والاعتمال المتفاقم للجرح النرجسي!

وبرغم ما حدث من مآسٍ إنسانية غداة الاستقلال، وقف بطل الرواية صامدا ضدها بكل ما أوتي من قوة الحق ونور العلم وإرادة التسامح. فالذي أرّق أرسلان بطل الرواية؛ أنّى للإنسان أن يكره أخاه الإنسانَ؟!! إن العنصرية هي

الوجه الآخر للكراهية التي من بدئها حتى منتهاها تكشف عن بدائية بعض البشر. "إن الروائي لا يعرف لغة واحدة ووحيدة، يمكن أن تعتبر عن سذاجة (أو اصطلاحا) لغة أكيدة وحاسمة. إنه يتلقاها مصنّفة ومُقسّمة من قبل، إلى لغات متنوعة. لذلك حتى لو ظلّت التعددية اللسانية خارج الرواية، وحتى لو تقدّم الكاتب بلغة واحدة مُثبّتَة كليًّا (بدون أن تشتمل على تباعد أو إنكار أو تحفظات)، فإنه يعلم بأن تلك اللغة ليست دالة ولا مقبولة من الجميع، وبأن تَرِنَّ وسط التعدد اللغوي وبأنه يتحتم الحفاظ عليها، وتطهيرها، والدفاع عنها، وتعليلها. كذلك حتى تلك اللغة الوحيدة المباشرة، هي لغة جدالية ودفاعية، أي أنها بعبارة أخرى، مرتبطة حواريا بالتعدد اللساني." (باختين، ٢٠٠٩، صفحة ١٨٠، ١٨١)

هذه الرواية تمتلئ بمستويات صراع متعدّدة.. تتحدّث عن الجزائر كأرض عامرة بكل الخيرات، قصدها القاصي والداني منذ قديم العصور، فانفتحت على عديد الأجناس والأعراق والديانات، وقد عرفت المسلم والمسيحي واليهودي في اختلافهم وتآلفهم. ويتصوّر بحثُنا متننَا الروائي عند معالجة هذه الزوايا العَقَدية أنه كان منفتحا انفتاحا كليا، بل يكاد يعتقد جازما بأن الرواية لم تُكتب إلاّ لأجل ذلك؛ أَلَمْ تتكرّر في كل مرة عبارة: [ومثلي مثل حاييم]، وكأن الراوي يسرد لنا قصة (توأمة) دينية و(أخوية) إنسانية. لكن، وعلى الرغم من كل ذلك فلا يمكن للكاتب إخفاء تلك الكراهية الموسومة بالعار على جبين اليهود الذين ذهبوا بحقدهم إلى فلسطين. ففي قصة هامشية تحكي الرواية ضمن قصص حبها الفرعية قصة حبّ حاييم وڤولدا، ورفضه القاطع للمغادرة معها كما فعل معظم الشتات اليهودي من هنا وهناك. وحين لم يعرفوا طعم الاستقرار في كل البلدان التي توزعوا بينها، انتقموا من أرض بيت المقدس، بعد أن توسّدوا كمًّا أسطوريا خرافيا زائفا، وشحنوا قوى الشر الغربية وتحالفوا معها. تمسّك حاييم بأديم الأرض الجزائرية إلى أن دفن بها، رافضا كل الإغراءات. هو الذي عرف طعم الظلم وقيمة الحق: "'قلت له إلى أين تريدونني أن أغادر؟ هذا وطني. هنا ولدت وولد آبائي. وأخلاط جسدي من تربة هذه الأرض. وفيها أُدفن مثل آبائي. فلسطين ليست أرضي ولا وطني'." (السائح، ٢٠١٨، صفحة ١٦٢)

كما أسلفنا الذكر فقد نقلت لنا هذه الرواية أجواء الحرب، وصوّرت مختلف مستويات الصراع التي نَمَّت الشعور بالكراهية تجاه الأشخاص والبلدان، وطحنت في طريقها أحلام إنسانية كثيرة كانت تؤمن بالتعايش فيما بينها. استطاعت الرواية وهي تنتقل من صراع الداخل إلى صراع الخارج راصدة كل المشاعر المرافقة له أن تكون فعل مكاشفة جارحة، فبهذا الصنيع عرّت نفاق الذات، حين تتواطأ مع الخارج بدعوى الغلبة لتكشف أنها تعاني أزماتها الداخلية العميقة أيضا، في صراع داخلي يستنزف كل القوى أو يكاد. أمّا عن صراع الداخل فإيديولوجي غالبا؛ فرغم توحّد كلمة أبناء الوطن الواحد حول ضرورة قيام الثورة من أجل استرجاع الحرية، إلاّ أنهم على اختلاف توجّهاتهم ومشاربهم وصلوا حدّ اتهام بعضهم بعضا بأنهم الفاشيون الجدد، رغم المصير المشترك الجامع بينهم بحكم الانتماء العرقي والجغرافي بل وحتى العقائدي.

في حين كان صراع الخارج مبررا إلى حدّ بعيد بالنظر إلى تعدّي الآخر الفرنسي على الأرض الجزائرية، واحتلالها لمدة ١٣٢ سنة، أذاقوا فيها شعبها طعم الذلّ والهوان والاحتقار. حين اتخذوا من حادثة المروحة مبررا زائفا مخادعا

لتأديب (برابرة) الجزائر؟!!! وتلك مغالطة تاريخية عظمى، كذبت بها فرنسا على نفسها وعلى التاريخ كله. فكانت الكراهية تحصيلا حاصلا لا محالة، في شكل علاقة سبب بنتيجة، أو فعل بردّ فعل، وإذا قرعت طبول الحرب فلن تُبقي ولن تذر: "وهم الذين زرعوا بذور كل هذه الكراهية التي تترجم اليوم إلى مجابهة دامية." (السائح، ٢٠١٨، صفحة ١٣٣) أَ ليسوا هم من عمدوا إلى إبادة الآخر وطمس هويته بشتى الوسائل، لا يغذي جرائمهم في كل ذلك إلاّ الخوف. نعم، خوفهم هم أيضا من الآخر، من ثقافته، من حضارته، من ديانته،... إنّ التاريخ حكايات وعبر، يجب العودة إليها وتأمّلها؛ تنقل الرواية شهادة بلسان إحدى الشخصيات 'الجدّة ربيعة' عن الجنرال بيجو كيف هدم دار الأمير: "'فعلا! وهو الذي أمر بتخريب تلك الدار اللطيفة وإحراق المدينة الصغيرة!'... 'حتى يجنب جنوده أن ينزع الشك في نفوسهم عند رؤيتهم إياها على تلك الحال في مثل هذه الأرض البعيدة التي أُخبروا عنها أن ساكنيها متوحشون يجب أن يُدخَلوا بالقوة إلى الحظيرة الإنسانية أو يبادوا." (السائح، ٢٠١٨، صفحة ١٠٦) لقد حاولوا تعتيم الحقائق، ليَظهروا في زي المتحضرين الذين يُريدون خير العالم أجمع، وهم لم يتجاوزوا كونهم مجموعة سرّاق في هندام أسياد. فعلى هذه الأرض شعب يعرف الرقي ويعشق الجمال ويتذوق الفنون ويسعى للعلوم.

لم تستطع أقنعة الزيف الحضاري تلك أن تغطي طمع فرنسا الوحشي كله، وتكشّفت عن ممارسة سياسة الكيل بمكيالين، فكلما قُتل عدد من جنودها في الحرب، قتلت من الأهالي أضعاف الأضعاف ونكّلت بهم. "والصراع بأنواعه لم يك إلا استجابة طبيعية لنفسية هذا الشعب الذي حارب الرومان حربا شديدة، وقاوم المحتلين الأقدمين مقاومة رائعة. (...)إن الاستعمار الفرنسي مع ما يملك من مال، وعدد، وعدة، وأجهزة، وتضليل، وتخدير... لم يستطع أن يصنع له شيئا حين أزمع على أن يلقي عنه لباس الذلة." (مرتاض، ١٩٨٣، صفحة ٣٤)

لا يولّد العنف إلاّ عنفا –كما هو معروف– وهكذا ضاع الحق في ثنايا الباطل. ومع استشراء القوة والعنف، لا شيء في الأفق كان يُبشّر بالخير. وفي أكثر اللحظات تشاؤما قالت الصديقة ورفيقة الجامعة الفرنسية سيلين وبعد أن أصيب أخوها في حرب التحرير في حوارها مع أرسلان الجزائري: "أخشى يا أرسلان أن تدمر هذه الحرب كل شيء، كل علاقة، وكل حلم." وجاء ردّه هو: "مهما تفعلْه الحرب فسيبقى في القلب كما في الذاكرة ما يرمّم كل ضياع." (السائح، ٢٠١٨، صفحة ١٣٩)

ما بين هاتين الرؤيتين المتشائمة والمتفائلة خيط رفيع من أمل، يُريد أن يُبقي على حلم التعايش قائما، حيث تأمّل أرسلان هو وصديقه حاييم أن تحتفظ جزائر الاستقلال بتنوعها العرقي والثقافي كمكسب لها، وغنيمة تاريخية كان من شأنها أن تُغني تركيبتها الاجتماعية وتُسهم في بناء حضارتها الجديدة. وإن كان هناك كثيرون ممّن سيُخالفون هذه الرؤية، إلاّ أن البطل ظلّت أمنيته التي بها حدّث صديقه حالما ومفترضا: "أن المشهد كان سيبدو جميلا ورائعا لو أن من كانوا فيها من الأوروبيين، قبل عامين، يختلطون، الآن، بأولئك المواطنين الذين كنا نمشي وسطهم، يتقاسمون الشارع نفسه والفضاء. ويبادلون التحيات ونظرات السلام." (السائح، ٢٠١٨، صفحة ٢٦٣) بهذا فكّر أرسلان معتقدا بأن "الترياق هو دوما من جنس السمّ نفسه." (طرابيشي، ٢٠١١، صفحة ١١٢) وأن مثل هذه الأفعال من جنس:

يختلطون، يتقاسمون، يتبادلون... وحدها هي الكفيلة بمداواة جرح الاختلاف البشري، الذي ينخر في جسد الإنسانية منذ قديم الأزمان.

تغوص هذه الرواية عميقا في تاريخ الجزائر الحديث المجروح، الذي عانى صراع الما–قبل وصراع الما–بعد، والذي ما كاد ليفرح بانتصاره وتحقيق استقلاله حتى غرق في تصفية الحسابات من هنا وهناك، مع داخله المتهافت وخارجه المتناحر. كان الأمل في أنه ومع انتهاء الحرب "يجب أن ينتهي كل تفكير في الثأر." (السائح، ٢٠١٨، صفحة ٢٢٦) ومن أجل هذا اجتهدت الرواية، محاولة إيصال وإسماع صوت التسامح وإبطال صدى الانتقام، سواء مع مَن بقي من الأوروبيين أو الكولون (الأقدام السوداء) أو اليهود، وبطل الرواية أحد هؤلاء، هو الذي أحبّ هذه الأرض وظلّ يتساءل متحيّرا: "لطالما تساءلت، منذ التقينا، بعد خروجنا من صلاة المساء في بيعة لارودوتْ، إن كانت الديانات صارت عاجزة تماما عن التقريب بين بني آدم، إذ يبدو أن الصلوات كلها في كنيسة هذه المدينة ومسجدها وبيعتها لم تزد هذه الحرب إلاّ أوارًا." (السائح، ٢٠١٨، صفحة ٢٠٢) وها هي قد انتهت الحرب، وها هو الحلم يبرز من جديد عبر أمل الصديقين حاييم وأرسلان: "'أنت تعرف أنه ليس لي صديق سواك. –سنكون كما كنا دوما لبعضنا'." (السائح، ٢٠١٨، صفحة ٢٧٣)

"كتاب الأمير" تجاوز أزمة الهوية إلى تعايش الخصوصية..

كثيرة هي النصوص الإبداعية التي تهتم بقضايا التعايش السلمي بين أبناء البلد الواحد على اختلاف مشاربهم وطوائفهم وتوجّهاتهم، بل وأبناء العالم أجمع على اختلاف حضاراتهم ودياناتهم وثقافاتهم. ولا نحسب الرواية وهي ديوان الدنيا الحديثة قد قصّرت في عرض هذه الأصوات المختلفة من هنا وهناك. ولأن الأمثلة عديدة في هذا الباب، يكفينا –في هذا المقام– أن نعرّج على نموذج ثان، له خصوصية كتابية مميّزة، إنه الكاتب الجزائري "واسيني الأعرج"، الحامل لمشروع روائي متكامل ومدروس الخطى، يمشي به منذ مدّة ليست باليسيرة في نهج إقامة حوار شامل بين الشعوب، حتى لا نقول بين الحضارات والديانات، هذه الأخيرة التي تُشكّل حجر أساس ونقطة ارتكاز في الهوية لدى كثير من الناس، فهي منطلق الكراهية ونبع التسامح في الآن ذاته؛ كلّ بحسب فهمه وتوظيفه لها.

كثيرة هي النصوص الفاتحة لأبواب التاريخ عامة، والرواية خاصة "تسمح بأن نُدخل إلى كيانها جميع أنواع الأجناس التعبيرية، سواء كانت أدبية (قصص، أشعار، قصائد، مقاطع كوميدية) أو خارج–أدبية (دراسات عن السلوكات، نصوص بلاغية وعلمية، ودينية، إلخ). نظريا، فإن أي جنس تعبيري واحد لم يسبق له، في يوم ما، أن ألحقه كاتب أو آخر بالرواية. وتحتفظ تلك الأجناس، عادة، بمرونتها، واستقلالها، وأصالتها اللسانية والأسلوبية." (باختين، ٢٠٠٩، صفحة ١٦١)

كان جورج طرابيشي قد طرح فكرة 'عداء الغرب' في مقابل 'المقاومة الثقافية'، بيد أن "واسيني الأعرج" عبر رواية "كتاب الأمير –مسالك أبواب الحديد–" يحكي قصّة علاقة صداقة صادقة ونادرة بين طرفين مختلفين اختلافا عميقا في نظر البعض؛ هما المستعمِر متمثّلا في القس المسيحي والمستعمَر متمثّلا في الأمير المسلم. يفتتح الكتاب عتباته بمقطعين تمهيديين كنصين موجّهَين، هما:

-"'في انتظار القيام بما هو أهمّ، أعتقد أنّه صار اليوم من واجبي الإنساني أن أجتهد في نصرة الحقّ تجاه هذا الرجل وتبرئته من تهم خطيرة ألصقت به زورًا وربما التسريع بإزالة الغموض وانقشاع الدكنة التي غلّفت وجه الحقيقة مدة طويلة.' مونسينيور ديبوش Monseigneur Dupuch

– 'Si tous les trésors du monde étaient déposés à mes pieds et s'il m'était donné de choisir entre eux et ma liberté, je choisirai la liberté.' الأمير عبد القادر'Emir Abdelkader " (الأعرج، كتاب الأمير –مسالك أبواب الحديد–، ٢٠٠٥، صفحة ٠٥)

علما بأن معظم الأحداث نُسجت مستلهمَةً من بعض الوثائق التاريخية مُضافا إليها عدد من الجوانب المسكوت عنها برأي الكاتب. ومن بحر وأرض وسماء الجزائر إلى قصر أمبواز مكان احتجاز الأمير عبد القادر في فرنسا خرجت حكايات كثيرة لتروي ما دار بين رجلين، بين ثقافتين، بين ديانتين... "كتاب الأمير مسالك أبواب الحديد هو أول رواية عن الأمير عبد القادر. لا تقول التاريخ لأنّه ليس هاجسها؛ ولا تتقصّى الأحداث والوقائع لاختبارها، فليس ذلك من مهامها الأساسية. تستند فقط على المادة التاريخية، وتدفع بها إلى قول ما لا يستطيع التاريخ قوله. كأنها تستأنس برأي بول ريكور المشير إلى "عدم انحصار أساس المادة التاريخية بالوثيقة بل 'بالسؤال المطروح من قبل المؤرخ الذي تعود له الأولوية المنطقية في التحقيق التاريخي'." (صيداوي، ٢٠٠٨، صفحة ٩٣)

الرواية مبنية على السؤال؛ من حيث هي تستمع إلى أنين الناس وأفراحهم وانكساراتهم. إلى وقع خطى مونسينيور ديبوش، قس الجزائر الكبير، وهو يركض باستماتة بين غرفة الشعب بباريس وبيته للدفاع عن الأمير السجين بأمبواز. رواية كتاب الأمير، فوق كل هذا، درس في حوار الحضارات ومحاورة كبيرة بين المسيحية والإسلام، بين الأمير من جهة ومونسينيور ديبوش من جهة ثانية. هذا ما قاله الروائي في صفحة الغلاف الخلفية عن نصه الذي هام في منافي الجسد بحثا عن صفاء الروح في بعدها الإنساني الناظر إلى الحقيقة بعين الحقّ، و"الحقّ أحيانا فوق الأديان." (الأعرج، كتاب الأمير –مسالك أبواب الحديد–، ٢٠٠٥، صفحة ١٥) بعيدا عن المصالح وانزلاقاتها التأويلية.

من هو الأمير عبد القادر الجزائري؟ إنّه مؤسّس الدولة الجزائرية الحديثة، إنّه القائد العسكري المحنّك، والسياسي الماهر، والمثقف البارع، والصوفي الورع. إنه الرجل الذي أثبت وجوده في الحرب والسلم بشجاعة عزّ نظيرها عند أقرانه وأعدائه على حدّ سواء.

ومن هو مونسينيور ديبوش؟ إنّه الذي جاء إلى أرض الجزائر بعد احتلالها من طرف فرنسا وقد عُيّن أسقفا عاما فيها. "كان يحب الماء والصفاء والنور والسكينة على الرغم من الظروف القاسية التي لم تمنحه إلاّ المنفى والجري وراء سعادة الآخرين حتى نسي نفسه." (الأعرج، كتاب الأمير –مسالك أبواب الحديد–، ٢٠٠٥، صفحة ١٢) وهو مَن تطوّع عن حبّ وقناعة للدفاع عن الأمير عبد القادر أيام محنة سجنه لأن فرنسا الإمبراطورية (العظمى) نكثت عهدها معه، وقد تجبّرت عليه وقت ضعفه، وتعدّت على حريته. وكما قال 'مونتيسكيو' في كتابه 'روح القوانين': "من التجارب الأزلية أن كلّ إنسان له سلطة يميل إلى إساءة استعمالها، وهو يسترسل في ذلك حتى يُلاقي حدودا. إن الحرية تحتاج إلى حدود." (بن عبد العالي، سبيلا، ٢٠٠٨، صفحة ٤٠)

أمّا كيف ارتبط مصير الرجلين ببعضهما؟ فهو الحكاية المتشعبة التي تسرد الرواية أحداثها ومواقفها. فقد تطوّع المحترم ديبوش للدفاع عن الآخر الذي لم يعد آخرا تماما؛ وهو الأمير عبد القادر. من أجل إطلاق سراحه بموجب معاهدة أُبرمت بين الطرفين، وبعد حرب ضارية شهدت شجاعة الرجل وخذلان الأصدقاء والإخوة. وكأن القصة تكمن في أنه "ارتبط بهذه الأرض فدافع عنها باستماتة ودافع عن رجلها الكبير، الأمير، مثل الذي يدافع عن كتاب مقدّس. استمات في الدفاع عنه حتى جعل حياته كلّها رهن إطلاق سراحه. البارحة قضيت الليلة بكاملها أفلي كلماته الأخيرة التي كنت أظن عبثا إنّي أعرفها عن ظهر قلب، لأفهم عميقا سرّ هذا الحب. الأمير كان وسيلته للوصول إلى المحبة العليا." (الأعرج، كتاب الأمير –مسالك أبواب الحديد-، ٢٠٠٥، صفحة ١٤، ١٥) وبالعودة إلى فكرة أن الأمير بالنسبة لموسينيور لم يعد آخر تماما؛ تجدر الإشارة إلى أن 'مفهوم الآخر' صعب الضبط حتى في المعاجم الفلسفية، مثل معجم لالاند Laland الذي عجز عن ضبطه، مكتفيا بالإشارة إلى أنه: "هو أحد المفاهيم الأساسية للفكر، من المستحيل إذن تعريفه. فهو نقيض الذات لما هو نفسه ويقال على كلمات: شتى، مختلف، مميّز." (لالاند، ٢٠٠١، صفحة ١٢٤، ١٢٥)

كانت الحرب سببا في تواصلهما؛ ولأن مَن يقومون بالحرب يُورّطون شعوبهم ويبنون مجدهم على أكتافهم، وهم الذين لم يرحموا أبناءهم فكيف لهم أن يرحموا غيرهم؟؟! "الحرب أحيانا تعمي الأبصار، كل الأبصار. الحرب شرّ مهما كانت المبررات التي تتخفّى من وراءها." (الأعرج، كتاب الأمير –مسالك أبواب الحديد-، ٢٠٠٥، صفحة ٥٨) لكن، ووسط هذه العتمة يبزغ بعض النور من علاقات البشر مع بعضهم. فمَن لم تكن لهم يد في بدء هذه الحروب هم غالبا مَن يكون لهم الدور الحاسم في إنهائها؛ أو على الأقل في تحويل مسارها القاتم المتناحر نحو إقامة علاقات أخرى يقودها التسامح نحو التعايش بشرط عدم التعدّي.

قد يسأل سائل –وهو في ريبة من أمر الفن والتاريخ-: ما حاجة الرواية إلى تاريخ؟ لنرد بالسؤال العكسي: ما حاجة التاريخ إلى رواية؟ "إن الرواية كواحدة من التمثلات التي ينتجها الإنسان تعطي معنى لتجربة تاريخية معينة، فضلا عن دمجها الجماعة التاريخية في الهوية الجماعية الواحدة التي يجري باستمرار سردها وتأويلها. ما يستدعي القول بأن الرواية تاريخٌ، لجهة زمنيتها أو لجهة فاعلية التأويل المتواصل عبر الزمن الذي يفتح النص على أفق دلالية متجددة." (صيداوي، ٢٠٠٨، صفحة ١٠٢) في "كتاب الأمير" تعرض الرواية شخصية الأمير عبد القادر بن محي الدين وهو أشهر من نار على علم، لكنها تحاول إعادة إبراز ملامح أخرى قد تكون مخفية على الكثير من الجزائريين أنفسهم، وسواء أصاب الروائي أو أخطأ في صنيعه هذا، فهي كتابة تخييلية في نهاية الأمر، ولا يمكنها أن تتعدّى ذلك إلى كونها وثيقة تاريخية يمكن اعتمادها. خصوصا إذا علمنا كم الجدل الذي أثارته الرواية عقب صدورها مباشرة، وما طال مؤلفها من اتهامات متعدّدة تدور في فلك التشويه والتزوير.

من أهم الصور التي نقلتها الرواية عن الأمير؛ صورة الرجل القوي بالحق ولا شيء غير الحقّ، مقاوم لا ترهبه عُدّة أو عتاد، وقد كانت فرنسا يومذاك من أعتى الإمبراطوريات في العالم وأشرسها آلة عسكرية. أما هو فرجل آمن بواجبه الوطني والأخلاقي والديني: "اللهم أعني، لقد فُرضت الحرب عليَّ ولم أفرضها على أحد. الله يعلم ما تسرّون وما

تعلنون." (الأعرج، كتاب الأمير –مسالك أبواب الحديد–، ٢٠٠٥، صفحة ١٢٧) لقد كان الأمير يدافع عن شعب احتُلّت أرضه وسُلبت خيراتها. وللمقاتل الحقيقي أخلاق الفرسان، وبصيرة نافذة تستشعر بؤر الخطر وتعمل على اجتثاثها، من أجل صلاح البلاد والعباد. فليس العدو خارجيا دوما، بل عدونا الداخلي أشرس وأفتك، ولذلك صمّم الأمير على عدم الاكتفاء بمحاربة الفرنسيين فقط، بل حارب إلى جانب ذلك الجهل ورُعاته، يقول: "كنت أقاتل ليس فقط الفرنسيين، ولكنّي كنت أقاتل حالة العمى التي كانت تصيب بعض خلفائي، فيظنّون أنّهم ملاّك الحقيقة، فيكفّرون ويقتلون من يشتهون. صحيح أن الحروب هذه هي، ولكن يمكننا أن نحد من جرائمها وانزلاقاتها حتى عندما تكون هذه الأخيرة عادلة في عمقها، أو على الأقل لها ما يُبرّرها." (الأعرج، كتاب الأمير –مسالك أبواب الحديد–، ٢٠٠٥، صفحة ١٤٨) وفي حربه المطوّلة ضد المحتلّ الفرنسي، بقي في انتصاراته كما في انهزاماته واحدا لا يتبدّل. بل وحتى في عزّ أزمته حين أخلفت فرنسا وعدها له بعد المعاهدة وغدرت به وأخذته أسيرا رفقة عائلته، بقي دوما: "يعذر حتى الذين تسبّبوا في عذابه الكبير، مسلمين كانوا أم مسيحيّين. ويعزو كل ذلك إلى الظروف القاسية التي تتسلّط فجأة على الأفراد والجماعات." (الأعرج، كتاب الأمير –مسالك أبواب الحديد–، ٢٠٠٥، صفحة ٤٧)

ولأن الكبار يُعرَفون بسيماهم، فقد تجاوزت شجاعة الأمير منطقه في الحرب والسلم إلى الخوض في مفاهيم الحياة ومقولاتها الكبرى، وسأل عن ثقافة الآخر، وقرأ في كتابه دون أن يختلّ إيمانه. لأن المواجهة المبنية على قوة الحجة لا تَرهب الآخر، ولا تتحجج بالوهم، وما دامت عقلانية فستكون واثقة لا محالة. شخصية الأمير في هذا الخطاب الروائي تُحدّثنا عن إمكانية الذهاب نحو بعضنا بعضا وكأنّنا لا نختلف تماما. ففي مقطع رهيب..! يطالب أمير المؤمنين القس المحترم بمنحه وقتا قليلا للتعرّف على دينه، وإذا ما اقتنع به سار نحوه. وكأنه أراد أن يخبره بأن لا شيء بإمكانه أن يفصل الإنسانَ عن الإنسانِ، وأننا "نحتاج إلى وقت كبير لكي ندرك أنّنا من أرض واحدة ولو كنا من قبائل شتى وأنّ مستقبلنا الكبير في تكافلنا وتعاضدنا وليس في تقاتلنا." (الأعرج، كتاب الأمير –مسالك أبواب الحديد–، ٢٠٠٥، صفحة ١١٤) الأمير بموقفه هذا يرفض'اللاقراءة' أو 'الضد قراءة'، تلك التي جنت على الثقافات، بعد أن أحكمت غلقها داخل تراثها وما تركت لها فرصة الاستفادة من دروس التاريخ، الذي تدور عجلته باستمرار نحو الأمام.

قاسم الأميرَ عبد القادر بطولةَ الرواية المحترمُ مونسينيور ديبوش، تماما كما وقف معه جنبا إلى جنب، بل وراح يستميت في الدفاع عنه بكلّ ما أوتي من قوّة الحقّ، رغم هزال الجسد وقلّة الحيلة. ربما أيضا لأنه أحبّ الجزائر حبّا خاصّا، وقد كان يقول: "أتمنّى أن يمدّني الله بعمر آخر لأخدم هذه الأرض التي حرمت منها في وقت مبكّر. سأعطيها رفاة الجسد إذا كان رماد تربتي يسكت الأحقاد ويوقظ حواس النور والحب في قلوب الناس." (الأعرج، كتاب الأمير –مسالك أبواب الحديد–، ٢٠٠٥، صفحة ١٦) لم يكن دفاعه عن حرية الأمير دفاعا متنصلا من التزامات إنسانية أخرى بحق حرية شعب بأكمله، وقد أحبّ مونسينيور ديبوش الجزائر حبّا استثنائيّا، وكانت وصيته في نهاية حياته أن يُدفن رفاته بين ذويه في الجزائر. الأمر الذي نجح فيه أخيرا مرافقه جون موبي، ممّا أشعره "به الآن يغط في سعادة عميقة

وهو يرى من أعالي المجد، الأرض الطيبة التي تنام عليها رفاته التي عادت إلى تربتها الإفريقيّة التي أفنى عمره في حبّها." (الأعرج، كتاب الأمير –مسالك أبواب الحديد–، ٢٠٠٥، صفحة ٦٢٤)

هكذا إذن، تقدّم الرواية القس (المسيحي) في ثوب الصديق المسالم لأمير الجزائريين (المؤمنين)، ما يَبِينُ عن علاقة صفاء تخلو من العقد، وتنتصر للحرية والسلام، مونسينيور ديبوش الذي قضى الشهور الطوال في سعي حثيث بين البرلمان والرئاسة الفرنسية، ولم يتعب يوما من الجري بينهما رغم كل المحبطات التي ما فتئت شرارة الحرب تشعلها فلا تخمد. وقد لاحظ الفرنسيون أنفسهم ذلك، فخاطبوه: "–ألم تتعب من الجري. لو كان كل القساوسة مثلك يا مونسينيور لتغيّر وجه الدنيا نحو الأحسن. –متعة أن يركض الإنسان من أجل شيء هو على يقين أنّه حقّ بيّن." (الأعرج، كتاب الأمير –مسالك أبواب الحديد–، ٢٠٠٥، صفحة ١٤٤) رغم أنه ومن شدّة إعجابه بشخصية الأمير المنفتحة، ما انفك يفكّر "كلما تأمّلت هذا الرجل، ازددت محبة له ولأخلاقه. الأنانية أحيانا مؤذية. في البداية تمنيته مسيحيّا، نزهو به كأخ ونلقّنه تعاليمنا ليذهب بها عند ذويه ويشيعها.. ولكن مع الزمن تأكّدت أنّ هذا الرجل يشبهنا في كل شيء، لا يمكن أن يكون إلاّ هو، رجل محبّ لكل شيء يقرب الإنسان من المحبّة والله." (الأعرج، كتاب الأمير –مسالك أبواب الحديد–، ٢٠٠٥، صفحة ٢٤٨) وهي خلاصة حياتية كبيرة تعلّمنا بأن الإيمان بالاختلاف هو قمة التسامح. ثم، لقد آمن مونسينيور بأن صوت القلب لا بدّ أن تنحني أمامه الحروب والموت والمظالم. كما آمن بالأخوية الإنسانية، كما يدل على ذلك ما جاء في حوار دار بين الرجلين: "لك كل المحبّة التي تقرّب أحدَنا من الآخر، حتى ولو اختلفنا، لتستقرّ روحانا داخل الحقيقة الإلهية الكبيرة نفسها." (الأعرج، كتاب الأمير –مسالك أبواب الحديد–، ٢٠٠٥، صفحة ٤٩) هنا تكمن رسالة الرواية وجوهرها.

كان الأمير عظيما في سماحته وهو الذي –كما تذكر المصادر التاريخية– ألّف بين قلوب الإخوة السوريين مسلمين ومسيحيين بعد اختياره لمنفاه هناك، لقد منع بحكمته وصلاحه حدوث مذبحة حقيقية كان سيندى لها جبين الإنسانية على مدار أزمنة وعقود. "فكل فريق أصولي يعتبر تفسيره هو التفسير الصحيح، وأنه وحده من دون سواه على الصراط المستقيم، باستبعاد سواه من فلك الحقيقة والإيمان." (حرب، ٢٠٠٥، صفحة ٩٤) بيد أن أمير القلوب عبد القادر كان ممّن يُسلّمون بأن "اليقين بامتلاك الحقيقة يعمي صاحبه ويقوده نحو الهلاك. ففي كل الأديان شيء من التطرُّف يؤدي إلى هلاكها." (الأعرج، كتاب الأمير –مسالك أبواب الحديد–، ٢٠٠٥، صفحة ١٤٧) وقد نبّه على مدار حياته على أن مفهوم الدين الحقيقي سعادة أهل الأرض، ومداواة جراح الناس، فالدين عنده نبتة طيّبة، متى كان غرسها جيّدا أعطت خيرا عميما. سيبقى الأنا والآخر في حاجة دائمة إلى التواصل "لتجاوز الاختلافات/ فحتى يكفّ الآخر عن أن يكون 'غريبا' ومختلفا عني، وحتى لا تبقى الأنا بدورها 'مختلفة' لا بد من الكلام ليزول الاختلاف الطبيعي." (بوغديري، ١٩٩٩، صفحة ٩٥)

ثم إن مجمل الأحداث الواردة داخل الرواية ينطلق من سردية تاريخية معروفة، مما جعل الرواية تتمتع بحرية هوامش أكبر رغم أنها هوامش مفخخة، وحكم الزمن عليها لا يرحم. أما الرواية فما هي إلا حدث، أي فن زمني، يسعى إلى صناعة تاريخه الخاص. "لعل خاصية الرواية هذه، القائمة في زمنيتها، جعلت منها نصا تسجيليا للتاريخ رفد التاريخ الحقيقي بمادة متخيلة تحكي فنيا أحداث التاريخ عبر ترتيبها وتأويلها، حكايات تخترق الروايات الرسمية للتاريخ." (صيداوي، ٢٠٠٨، صفحة ٩٦) ما بين الواقع التاريخي والسرد التخييلي تتأكّد سمة المدن الكبرى بتنوّع أهلها بين أصليين ووافدين، لكن هناك فرق شاسع بين مَن يعشقون تراب هذه الأرض وبين مَن يطمعون فيها. فالأمير ومونسينيور لم يكونا وجهين لعملة واحدة إلاّ بالمحبّة والاحترام، لا بالتعدّي والظلم. والثاني الوافد قد عمل ساعيا إلى إزاحة جميع الحساسيات الدينية، بالمقابل لم يدّخر الأول الأصلي جهدا في تقريب التلاقي وإقامة التفاهم. ولنستذكر جميعا بأن "التراث الإسلامي هو فضاء دلالي واسع. فمقابل خطاب التبديع والتكفير والتأثيم والترهيب ونبذ الآخر، هناك خطاب آخر مفرداته هي: الاختلاف، والتعارف، والوسطية، والسوية، والتداولية، والعالمية. إن الخطاب في القرآن موجه أساسا إلى الإنسان ببعده العالمي والكوكبي، وهذا أحوج ما نحتاج إليه الآن، بحيث يتحمل البشر المسؤولية المتبادلة، بعد أن تداخلت المصالح والمصائر." (حرب، ٢٠٠٥، صفحة ٩١) فإن كان قدر الأرض أن يلتقي فيها البشر على نحو ما، فليكن هو السلم. وفي وضع ما، فليكن هو الأمن. عندما يتوحّدون على فكرة التعايش، التي لا تُلغي لأي كان خصوصيته، أو تمحي هويته، أو تنهي وجوده. أي "بدون إلغاء لهامش الذاتية والخصوصية في أي عقل، فإن خطاب العقل إلى العقل لا يستطيع أن يضع رهانه على أي شيء آخر غير العقلانية الكونية. ومهما يكن الإنسان متجذّرا في خصوصية هويته، فإنه إنما بوساطة العقل وبوساطة وحدة مقولاته المنطقية يستطيع أن يخاطب كل إنسان غيره، مهما يكن 'آخر'، بل مهما يكن 'عدوًا'." (طرابيشي، ٢٠١١، صفحة ١٠١)

الخاتمة: عود على بدء في 'ما يجب أن يكون'..

قامت الروايتان -متنا البحث- على مفهوم التعددية بمعناها المفتوح إنسانيا إلى جانب التعدد اللساني؛ و"هو خطاب الآخرين داخل لغة الآخرين (...) مثل هذا الخطاب يشتمل على صوتين، وعلى معنيين، وعلى تعبيرين. (...) فهي جميعها خطابات ثنائية الصوت، ذات صيغة حوارية داخلية، فيها جميعها توجد بذرة حوار كامن، غير مُنتَشر، مركز على نفسه، حوار لصوتين، ومفهومين للعالم، ولغتين." (باختين، ٢٠٠٩، صفحة ١٦٧)

"أنا وحاييم.." للحبيب السائح، رواية تحدّثك حينا بتفصيل مذهل عن أجواء الحرب وجرائم المستعمر والتمييز العنصري، وعن مدى صعوبة الإحساس بالفقد. وأحيانا أخرى تحملك في أجواء عواطف الحب والصداقة والحنين والتسامح الديني. وبين هذا وذاك يفتح المؤلف ملف الهويات الصعب، ويتعامل مع التاريخ ليس بوصفه تاريخا منتهيا ولكن كمساحة للتساؤل. وموقف الكاتب من الصهيونية واضح برفضها ومحاربتها، لكن اليهودي شيء آخر، باعتباره مكوّنا مجتمعيا وتاريخيا. لهذا يبني الرواية على صداقة بين جزائريَين، أحدهما مسلم والآخر يهودي، يتقاسمان الطفولة

بذكرياتها والاحتلال بعنصريته، لكن ومع تحقّق حلم الاستقلال كان المصير قد افترق، والأسطورة قد عادت إلى الواجهة من جديد.

"كتاب الأمير" بجزئيه "مسالك أبواب الحديد" و"غريب الديار" لواسيني الأعرج، رواية تتحدّث عن التسامح الديني بين المسلم 'الأمير عبد القادر الجزائري' والمسيحي 'القس مونسينيور ديبوش' رغم الحرب الشرسة بينهما. أين ظهر هذا الأخير صاحب واجب إنساني دعاه إلى الاجتهاد في نصرة الحق تجاه الآخر وتبرئته من تهم خطيرة ألصقت به زورا. في المقابل كان الأمير مسلما عصريا، غير مريض بدينه، وفي الوقت نفسه ظل محاربا من أجل هذا الحقّ. ظلّ منخرطا في مشكلات عصره التي واجهها بشجاعة خارقة وفهم مبكر، بأنّه لا حلّ للإنسانية لتفادي الحروب سوى بتعايش التعدديات.

ولأنّ الرواية نصّ الأصوات المتعددة فقد عرضت خطابا مختلف الشخصيات والتوجّهات، بما فيها تلك المتنازعة والمتسامحة على حد سواء، رغم ميراث الأحقاد الذي يتوزّع بين أبناء الثأر الاستعماري، وبين أصحاب الاختلاف العقدي، وبين متعصبي التوجه الإيديولوجي... لكن في النهاية لا مناص من أن يوحّدنا الحلم الإنساني الطوباوي، أو تجمعنا الحتمية البشرية الواقعية للعيش معا، طالما هناك حاجة مشتركة وخاصية موحّدة.

قائمة المراجع:

١. الأمم المتحدة. (١٩٩٦). *العهد الدولي الخاص بالحقوق المدنية والسياسية*. تاريخ الاسترداد ٢٠٢٤، من موقع الأمم المتحدة: https://www.ohchr.org/ar/instruments-mechanisms/instruments/international-covenant-civil-and-political-rights

٢. الحبيب السائح. (٢٠١٨). *أنا وحاييم*. الجزائر، تونس: دار ميم للنشر، مسيكيلياني للنشر والتوزيع.

٣. أندريه لالاند. (٢٠٠١). *موسوعة لالاند الفلسفية* (الإصدار ط٢، المجلد م١). (خليل أحمد خليل، المترجمون) بيروت، باريس: منشورات عويدات.

٤. جورج طرابيشي. (٢٠١١). *هرطقات (عن الديمقراطية والعلمانية والحداثة والممانعة العربية)* (الإصدار ط٣). بيروت-لبنان: ، رابطة العقلانيين العرب، دار الساقي.

٥. رفيف رضا صيداوي. (٢٠٠٨). *الرواية العربية بين الواقع والمتخيل* (الإصدار ط١). بيروت-لبنان: ، دار الفارابي.

٦. عبد السلام، محمد بن عبد العالي، سبيلا. (٢٠٠٨). *حقوق الإنسان -الأصول والأسس الفلسفية-* (الإصدار ط٣). الدار البيضاء-المغرب: دار توبقال للنشر.

٧. عبد الملك مرتاض. (١٩٨٣). *نهضة الأدب العربي في الجزائر* (الإصدار ط٢). الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.

٨. علي حرب. (٢٠٠٥). *أزمنة الحداثة الفائقة -الإصلاح-الإرهاب-الشراكة* (الإصدار ط١). الدار البيضاء، بيروت، المغرب، لبنان: المركز الثقافي العربي.

٩. مارك أوجيه. (شباط، ٢٠٠٩). أتنولوجيا الهوية: من هو الآخر؟ -مسلك أنثروبولوجي (الثقافة كسبا فرديا). *مجلة "كتابات معاصرة"*، ١٨ (٧١).

١٠. ميخائيل باختين. (٢٠٠٩). *الخطاب الروائي* (الإصدار ط١). (محمد برادة، المترجمون) القاهرة: رؤية للنشر والتوزيع.

١١. واسيني الأعرج. (٢٠٠٥). *كتاب الأمير –مسالك أبواب الحديد-* (الإصدار ط١). بيروت-لبنان: دار الآداب.

١٢. واسيني الأعرج. (٢٠١٥). ٢٠٨٤ *حكاية العربي الأخير*. الجزائر: موفم للنشر.

١٣. ياسين بوغديري. (أيار، حزيران، ١٩٩٩). مشكلة الأنا في الفلسفة المعاصرة – الأنانة: تبادلية السيد – . *مجلة "كتابات معاصرة"*، ١٠ (٣٧).